شهادات | مقالات بارزة

شهادات ناجين وناجيات من مجزرة الساحل (٢)

عن ميلا التي قتلوها فلم تمت، وميرا التي لم يقتلوها فماتت! أطفال شاهدون على مجزرة

26 آذار 2025

روزا ياسين حسن

كاتبة وروائية سورية مقيمة في ألمانيا، صدر لها عدد من الروايات منها: "أبنوس"، "حراس الهواء"، "بروفا"، "نيغاتيف"، "الذين مسّهم سحر"، "بين حبال الماء". ترجمت أعمالها إلى عدد من اللغات، منها الألمانية والفرنسية والإيطالية، إضافة إلى ترجمة فصول إلى الإنكليزية والفلامنكية.

ابتداء من يوم الخميس 6 آذار/ مارس 2025 ولمدة ستة أيام تالية، تعرّضت مناطق ذات غالبية علوية في الساحل السوري إلى هجوم منظّم يحمل ملامح التطهير العرقي من مجموعات مسلّحة محسوبة على الحكومة المؤقتة في دمشق، راح ضحيته أكثر من ألف مدنيّ من أطفال ونساء وشيوخ ورجال، حسب المرصد السوري لحقوق الإنسان، من دون إعلان السلطات الرسميّة عن عدد القتلى.

موقع "درج" ينشر شهادات ناجيات وناجين من المجزرة تباعاً بحسب ما وثّقتها ودوّنتها الكاتبة السورية روزا ياسين حسن، التي تنشر الشهادات بالإنكليزيّة على "حكاية ما انحكت"، وفي وقت لاحق بالعربية.

***

لم يستطع البطل الخيّر أن ينتصر في قصص الأطفال هذه، لم يُنقذ بابا من الوحش، لم ينجح في إعادة الصغار إلى حضن ماما، ولم يُنه الحكاية كما تنتهي عادة في القصص التي تربّينا عليها، أن يعيشوا في سبات ونبات وسعادة. في القصص هذه لم يكن ثمة بطل خيّر أصلاً، الأبطال برمتهم متعطّشون للدم. شكل الحكاية الجديد هذا سيصنع حكايات أخرى لن ينتصر فيها إلا الوحوش، ينتصرون على ذاكرة ومخيال وقلوب جيل كامل من أطفال الساحل السوري.

سأحكي لكم أولى هذه القصص عن ميلا سلمان، طفلة عمرها 5 سنوات ونصف، عندها جديلتين كستنائيتين وضحكة تشرق وسط العتمة، تماماً كضحكات باقي الأطفال في تلك البلاد. لكن ذلك الصباح لن يدفن ضحكتها فحسب، بل سيقلب حياتها كلها إلى الأبد، صباح يوم السبت 8 آذار 2025. أصوات إطلاق الرصاص في حي القصور بمدينة بانياس مخيفة، تصمّ الجو كما تصمّ الآذان. عائلة كميت سلمان 40 سنة، مهندس حواسيب في مشفى بانياس، زوجته هبه العلي 38 سنة وابنه عليّ 7 سنوات وابنته ميلا، في بيت جيرانهم وأصدقائهم يزن الخليل وزوجته ألين شهلا وابنتهم الصغيرة قمر، التي لم تتجاوز العامين، حين حصلت المجزرة.

- قمر الصغيرة كنت حبّها كتير.

تقول ميلا لخالتها. الأخيرة تحاول أن تغيّر الموضوع.

- فكّروني متت.
- ...

فصل الموظفين في الساحل السوري.. غياب "العصا السحرية" يرافق الحكومات السورية!

25 آذار 2025

في ذلك الصباح الدموي كان الجميع يلبثون سوية في الصالون، الأخان ميلا وعلي يرتجفان خوفاً من الأصوات في الخارج، ميلا في حضن والدتها وعليّ في حضن والده، أما الصغيرة قمر فتحملها أمها وتدور في الصالون لتهدئة بكائها الذي لا يتوقف. دقّ الباب فجأة وبقوة. راحت هبة تُطمئن ابنتها بأن كل شيء سيكون على ما يرام، لا تخافي حبيبتي، لكن الصغيرة التصقت بحضن والدتها أكثر. دخلت مجموعة رجال مسلّحين ملثّمين وانتشروا في أرجاء البيت.

- ما كان لهم وجوه.. أخذوا بابا وعمو يزن معهم.. ضربوا النار على ماما وخالتو ألين وضربوني على راسي بالبارودة.

تعود ميلا لسرد الحادثة من جديد. كلما أعادت الحكاية تذكّرت تفصيلاً جديداً.

حين دخل المسلحون البيت أخذوا كميت ويزن معهم، اقتادوهما إلى السطح وأطلقوا الرصاص عليهما. أما في البيت فقد أطلقوا الرصاص على هبة وألين والطفل عليّ وقمر، وضربوا ميلا على رأسها. ثمة شيء جعلهم لا يطلقون النار على رأسها! هل كي تكون الشاهدة الوحيدة على المجزرة! أم لسبب آخر! أغمي عليها فلم تشعر بشيء.

- لا.. أنا نمت. علوش اللي غمي.

تصحّح ميلا المعلومة.

"قرّبت من قمر لأني حسّيت عيونها مفتوحة، لكنها ما فاقت. ماما ما فاقت كمان ولا علوش ولا خالتو ألين."

حين استيقظت ميلا كان كل شيء ساكناً، لم يعد هناك صراخ، صمت مطبق محيط. بدأت تكتشف محيطها: ماما بجانبها جثة على الأرض، شعرها الطويل وثيابها غارقة بالدم، إلى جانبها جثة أخيها علوش. هزّته ولم يتحرّك، كنزته الصوفية عليها سائل لزج لونه أحمر صبغ كفّيها. كنزة الصغيرة قمر الصفراء كانت ملطّخة كذلك بالأحمر ومازالت في حضن أمها القتيلة.

- قرّبت من قمر لأني حسّيت عيونها مفتوحة، لكنها ما فاقت. ماما ما فاقت كمان ولا علوش ولا خالتو ألين.

ميلا استيقظت لترى نفسها محاطة بالجثث التي لا تستيقظ. فما كان منها إلا أن عادت لتتمدّد بجانبهم، فلربما عاد المسلّحون فيعتقدونها قد ماتت، ويتركوها بحالها. هذا ما فكّرت فيه طفلة عمرها خمس سنوات ونصف!

- بعد وقت لا أعرفه جاءت خالتي لتأخذني معها، احتضنتني وهي تبكي، وحملتني معها فقلت لها أخذوا بابا.
- ...

بعد انتهاء المجزرة استطاعت خالة ميلا أن تصل الحي. البناية مليئة بالجثث، وهي لا تستطيع أن تهدئ من روعها ولا أن تُهدّئ من روع الصغيرة، فقد بدت مذهولة بجرح عميق في جبهتها وعينين تتحركان في الفراغ دون أن تركّزا على صورة معينة وشحوب الموت في وجهها. كان عليهما أن تقطعا من فوق الجثث المنتشرة في طوابق البناية لتغادرا. في البيت المقابل سبع جثث لجيرانهم، الأب أمجد خزامي موظف في وزارة الزراعة والأم عبير حورية مدرسة لغة عربية، وخمس أولاد، نور تدرس في الجامعة، مكوّمة تسبح بدمائها إلى جانب محمود 14 سنة، بانه 13 سنة، والتوأم آدم وأكرم 7 سنوات. وقفت ميلا ترمقهم بذهول.

الساحل السوري بعد سقوط النظام السوري

09 كانون الثاني 2025

- آدم!!!
- أسرعي أسرعي يا صغيرتي..

تشدّها الخالة من يدها. كل ما كانت تفكّر فيه في تلك اللحظة أن تخرج الصغيرة من هذا الجحيم.

تنزلان الدرج فتلمح ميلا عبر باب شقة مفتوح شعر جارتهم الأشقر وهي متكوّمة إلى جانب زوجها وابنها عليّ ذي الأعوام العشر في الطابق الثالث. هي ممرضة اسمها رنا فياض، زوجها أيمن بلال موظف في مديرية الحراج. كانت نظارته إلى جانب رأسه، وابنهما يوسف ذي الأعوام السبعة يقف مذهولاً إلى جانب الجثث، فقد استطاع أن ينجو من المسلحين حين اختبأ داخل خزانة. يوسف شاهد آخر على مجزرة/ قصة لا تشبه قصص الأطفال المعتادة، سيعيد سردها بشكلها الجديد بعد نجاته. ولكن هل هي نجاة حقاً؟

- يوسف.. يوسف
- ...

أخذت الخالة ابنة أختها لتبقى معهم في مدينة طرطوس، تاركة جثة أختها وزوجها وابنها فلم يُسمح لهم وقتذاك بأخذ الجثث. أخرجتها من الجحيم، دون أن تكون واثقة إن كان الجحيم سيخرج يوماً منها. ذاك الصباح كانت المرة الأخيرة التي سترى فيها ميلا أخاها علوش وبابا وماما وقمر الصغيرة أحياء، وحدها أشكال جثثهم المدمّاة ووجوههم المشوّهة هي التي ستنطبع ملتصقة بذاكرتها.

في ذلك اليوم ستأتي والدة يزن لتعثر عليه على السطح مع بقية الضحايا ومازال فيه نبض، لكنه سيُسلم الروح في المستشفى بعد ساعات قليلة. أما قمر الصغيرة فقد استطاعت جدتها أن تأخذ جثتها لتدفنها كما يليق بصغيرة جميلة ترتدي كنزة صفراء ملوّثة بالأحمر.

في ذلك الوقت وفي بيت قريب في الحي ذاته كانت طفلة أخرى، اسمها ميرا وعمرها ثلاث سنوات، تعيش قصة أخرى مشابهة، حين استيقظت من نومها على أصوات عالية في صالون البيت. لم يكن لميرا جديلتين، لكن ماما وضعت لها قبل أن تنام بكلتين للشعر على شكل وردتين بلون البيجاما الوردية التي ترتديها. حملت لعبة الدبدوب الأبيض وخرجت إلى الصالون وكان مليئاً برجال معهم أسلحة.

- الحرامي قال للماما أعطيني المصاري، قالت له ما معنا مصاري ولا ذهب، أنا موظفة وما معي دهب.. دخيلك لا تقتلني منشان هالبنت. قصدها أنا.. قوّصها بوجهها ودخل على الغرفة وأخذ للماما السيشوار وليس الشعر.. قال لي فوتي نامي، قلت له بدي اقعد جنب الماما وما بدي نام.. قال لي ادخلي نامي.

ميرا ربيب لم تُقتل. لم يُطلق عليها ذلك المسلّح النار. هل كان لديه طفلة في عمرها! ربما. هل تركها شاهدة على مجزرة! ربما. ستظلّ أسئلة حائمة في الذاكرة لا تعثر على إجابات لتهدأ. لكن ميرا ستشهد مقتل والدها غسان ربيب، عامل في مصفاة بانياس وشيف في مطعم بيتزا، ستراه ملقىً على وجهه يسبح في بركة من الدماء والرصاصة في رأسه، وستضع بجانبه لعبة الدبدوب كي لا يبق وحده، فهي ستجلس بجانب أمها فاتن إدريس، معلمة في مدرسة الصناعة، الممدّدة على السجادة والغارقة بدمها والفجوة التي صنعتها الرصاصة في وجهها تأكل معظمه.

> "الحرامي قال للماما أعطيني المصاري، قالت له ما معنا مصاري ولا ذهب، أنا موظفة وما معي دهب.. دخيلك لا تقتلني منشان هالبنت. قصدها أنا.. قوّصها بوجهها ودخل على الغرفة وأخذ للماما السيشوار وليس الشعر.. قال لي فوتي نامي، قلت له بدي اقعد جنب الماما وما بدي نام.. قال لي ادخلي نامي."

- ماما قتلها الحرامي وعمل لها جورة في وجهها، نايمة وما عم تفيق!
- وبابا؟
- بابا نايم كمان وبركة حمرا حوله.
- لا تخافي أنا قادم لآخذك.

قالت ميرا لخالها على الهاتف.

الخال الذي أراد الاطمئنان على أخته وزوجها وابنتها، محاصر في قريتهم حريصون التي هوجمت من قبل مسلحين اجتاحوا القرية، أطلقوا القذائف وحرقوا وسرقوا ليفرّ الكثير من أهلها إلى الأحراج والضيع المجاورة قبل أن يقتلوا ما قتلوا منها. كانت الأخبار تصل من بانياس والضيع المجاورة بأن ثمة مجازر ارتكبت هناك، وهو يأكله القلق على أخته وعائلتها.

لحظتئذ سمع الخال حركة بجانب ميرا وأُغلق الهاتف.

في الهوية السنية لسوريا الجديدة: محكومون بالأمل، أم بالموت، أم بكليهما؟

24 آذار 2025

كان الخال قد تيقّن مما حدث بعد أن أغلق شخص ما الهاتف في وجهه، يحاول طيلة الوقت أن يتصل بالجارة التي تسكن فوق بيت أخته، رجاها أن تنزل لتأخذ ميرا من البيت. كانت تبكي ويرتجف صوتها وهي تخبره أنهم محاصرون ولا يستطيعون الحركة خارج البيت، لكن حماتها ترتدي عادة لباساً يشبه لباس نساء البلد، جلباباً طويلاً وغطاء رأس أبيض، فاعتقدها المسلّحون من الطائفة السنية بسبب لباسها، وكانوا يلومونها قبل دقائق لأنها متزوجة من رجل علوي، ربما نجحت في إخراج ميرا من البيت. بالفعل حين وصلت الجارة إلى البيت في الطابق الأسفل كانت ميرا تجلس وحدها بجانب جثّتي والديها بصمت وهدوء وتنظر في الفراغ.

- ماما ما عم تردّ عليّ! عم حاول فيّقها ما عم تفيق!

قالت للجارة، قبل أن تغطّي الأخيرة جثة الأم فاتن ببطانية وتأخذ الصغيرة ميرا معها. بسبب من تلك المرأة أمكن لميرا الخروج لتبقى خمسة أيام معها، إلى اليوم الذي استطاع الخال فيه النزول إلى بانياس وأخذها إليه.

جثتا غسان وفاتن ظلتا في الأرض حتى بعد الظهر. لم يستطع أهلهما النزول من قريتهم حريصون ليستملوا جثمانيهما. ألبسهما متطوعو الهلال الأحمر أكياساً بيضاء كتبوا اسميهما عليها، قبل أن يأخذوهما مع جثث الضحايا الأخرى من الحي في سيارات الهلال ويدفنوهما في مقابر جماعية إلى جانب مقام الشيخ هلال. فوق رأس كل جثمان وضعوا قطعة بلوك مرتجلة عليها الاسم تشير إلى مكانه. هنا ثمة جثمان لشخص كان لديه حياة، كما لديه عائلة وأحباب وذاكرة.

ميلا وميرا ناجيتان من مجزرتين شهدتاها بأم أعينهم، كما كثيرون من أطفال الساحل السوري، نجتا فيزيائياً، لكن كم يمكن لهما أن تنجيا كطفلتين ستكبران حاملتين معهما شعور الناجي، شعوراً مفخّخاً بذنب البقاء، صوراً بشعة، خوفاً دفيناً، ذاكرة ثقيلة ثقيلة مع أشباح فوق روحيهما، مع قصص جديدة انكتبت ستحكيانها في قادم الزمن عن آباء وأمهات وأخوة دفنوا في مقابر جماعية ولم يعودوا بسلام إلى البيت، قصص ليس فيها أبطال خيّرون نجحوا في إنقاذ الناس، بل وحدهم الوحوش هم الذين انتصروا!

*يمكن قراءة الجزء الأول من الشهادات بعنوان "شهادات ناجين وناجيات من مجزرة الساحل (١).. لمن سأقول بعد اليوم صباح الخير!" على الرابط هنا

شارك المقالة

مقالات متعلقة

تمرّد على سلطة الحكايات

17 أيار 2024

سوريا السُنيّة... تزاوج بين سرديّةٍ سلفية جهادية وسرديّة شديدة الطائفية

19 آذار 2025

حوار مطول مع الحقوقيّ محمد العبدالله

24 شباط 2025

انطباعاتٌ أوليّة عن عودتي الخاطفة إلى سوريا/ السويداء

07 شباط 2025

الوسوم: بانياس | شهادات ناجين | مجزرة الساحل | ناجيات

حكايات

بروفايل

شهادات

تحقيقات

استقصاء

سوريا تكتب

سياسة

الاقتصاد

ثقافة

جندر

بيئة

رأي

تدوين

Kurdî

من نحن

المجلة

مينا غاليري

هذا المصنف مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي. نسب المصنف : غير تجاري - الترخيص بالمثل 4.0 دولي

تصميم اللوغو : ديما نشاوي

التصميم الرقمي للوغو: هشام أسعد